الفصل الثالث

تحقيق الذات

وُلدت البذرة الأولى للحضارة الإسلامية مع بعثة النبى محمد ، ونبتت هذه البذرة فى أرض رعاها النبى وسقاها القرآن العظيم من الوحى الإلهى الذى تميز بعقيدة حقة تنبنى على التوحيد والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتميز بعبادة قاعدتها الأساسية هى الصلاة التى تقيم وتقوى صلة الإنسان بربه فى صلة تنبع من عقل وقلب الإنسان وتسمو بالضمير إلى أعلى مراتب الأخلاق الفاضلة والسلوكيات الحميدة.

وانبنى الدين الخاتم وانبنت الحضارة التى تولدت منه بذرتها الأولى، على العلم والإيمان وعلى السلام والقوة التى تحميه وتمكن من الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن، وتروع الذين يكيدون له أو يفكرون فى الاعتداء على أهله، وجاءت آيات القرآن العظيم ترفع من قدر العلماء وتبين أن طريق العلم يؤدى فى النهاية إلى الجنة، كما فرقت آيات القرآن العظيم بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ورفعت العلماء إلى مرتبة ورثة الأنبياء فى علومهم.

والقرآن نفسه هو معجزة علمية، وهو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم، بل إن الذين يعلمون تأويل آيات القرآن إنما هم النخبة من العلماء الراسخين فى العلم.

إن الأرض التى ترعرعت فيها بذرة الإسلام الأولى والتى انبنت عليها بعد ذلك حضارة هذا الدين، هى هؤلاء النفر من الصحابة الذين التفوا حول الرسول واتبعوه عن صدق ومحبة، ينميها الإيمان ويدعمها نور هداية محمد الذى كان يمشى به فى الناس، ورحمته ولينه ورقة قلبه، وهى الصفات التى تعامل بها مع هؤلاء الصحابة من المهاجرين والأنصار وسائر الناس، لقد حمل هؤلاء الصحابة الأوائل مسئولية تعليم ونشر الدين مع النبى حال حياته وبعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، واستطاعوا أن يؤسسوا والتابعين من بعدهم، بنيانا حضاريا هائلا امتد بعد ذلك إلى أقصى الشرق والغرب، وأفرزت هذه الحضارة العظيمة التى قامت على أصول الإسلام والطاقة الروحية الهائلة التى نشأت عنه وبه، بنيانا شامخا من العلوم وتطبيقاتها ومن الأخلاق وآدابها، ومن المساواة بين الناس بلا أى تمييز بينهم إلا بالعلم والأخلاق.

وكما هو الشأن فى الحضارات منذ العصور الأولى للتاريخ وحتى عصرنا الحالى، فقد صانت حضارة الإسلام نفسها عن طريق تلك المبادئ التى ذكرناها ـ وغيرها ـ تسندها قوة تحميها من أعدائها وتعمل على تحرير الإنسان وتوفير وضمان حرية العقيدة له، وكان التوحيد هو أحد الأسس الهامة التى انبنت عليها حضارة الإسلام فأكد عليها القرآن العظيم منبع ومرجع هذه الحضارة التى تولدت عنه تكملة لما جاءت به الأديان السماوية السابقة التى دعت أقوامها إلى نفس المبادئ ذات الجوهر المتماثل وهو توحيد الله والإسلام له، وقد كانت أولى عوامل أفول ونضوب معين هذه الحضارة الجديدة هو الانغلاق فى العلوم والمعارف وشيوع التقليد للأولين الذين كان الاجتهاد الفعلى هو سبيلهم إلى تنمية المعارف والعلوم فى شتى مجالاتها حتى الوقت الذى تم فيه إعلان قفل باب الاجتهاد لأسباب عديدة أثرت بالسلب على استمرار حركة ونمو وتقدم وتحديث فكر المسلمين فى كافة ميادين العلم المعروفة فى ذلك الوقت وما استجد منها منذ عصر النهضة الأوروبية

وثورات البخار ثم الصناعة ثم الذرة ثم نمو واتساع المعارف والعلوم وتطبيقاتها التكنولوجية على نحو ما نشهده اليوم.

ولانشك لحظة فى أن النهضة الحديثة هى أولى خطوات إعادة بناء حضارة المسلمين الغائبة التى تتصل مقوماتها، بالنظرة الدقيقة، بعوامل قد يكون من أهمها التربية والتعليم، والثقافة الدينية المستنيرة والثقافة العامة، والطاقة الروحية اللازمة للعمل والعطاء، وتنوير العقل المسلم وتقدير دوره فى البناء، والاجتهاد والتحديث فى إطار مفهوم الأصالة والمعاصرة، والإدارة والسياسة والاقتصاد والأخلاق والاجتماع والقوة العسكرية اللازمة لحماية السلام وكل المنجزات.

ومن الظواهر الجديرة بالدراسة والتحليل، اختلاف واقعنا السلوكى عن المستوى المتقدم لمبادئ وتعاليم وتوجيهات وروح ديننا الإسلامى، ولعل هذا هو ماقصد إليه الإمام محمد عبده عندما زار فرنسا، وقال آنذاك «رأيت إسلاما بلا مسلمين، وفى بلادنا رأيت مسلمين بلا إسلام».

ربما تضافرت فى إحداث هذه الظاهرة عوامل متعددة منها الفقر والجهل والأمية وقصور التربية والتعليم والثقافة سواء فى الأسرة أو المدرسة أو المعهد أو الجامعة، وتعطيل استعمال العقل والتفكير العلمى النابع منه، وربما أيضا النقص فى الخدمات إلى جانب تحييد زيادة معدلات الإنتاج وخطط التنمية نتيجة الزيادة المطردة فى عدد السكان، يضاف إلى ذلك تخلف الخطاب الدينى عن مواجهة الظاهرة فى أسبابها وأوجه علاجها والقضاء على روح اللامبالاة التى تقف دون القضاء عليها.

إنه من خلال هذا الفقر الدنيوى والتخلف الحضارى تكدست مفاهيم لا تتماشى مع مفاهيم الإسلام الصحيح، كانت ستتغير بالضرورة لو أننا كنا قد أعددنا القوة الشاملة - مادية ومعنوية - وفق ما يدعونا إليه الإسلام لنواجه بها التحديات المعاصرة وما هومن المتوقع أن يصحبها من تطورات خطيرة فى حياة الإنسان وأوضاعه نتيجة استمرار التقدم العلمى والتكنولوچى بتأثيراته المختلفة وما قد يحمله من تحديات للأديان كلها.

إن حاجتنا الروحية ملحة لاشك فى ذلك، ولكن حاجتنا المادية أكثر إلحاحا؛ لأنها الجانب الذى تخلفنا فيه منذ وقت بعيد لأسباب كثيرة، والذى يتحتم علينا أن نوفره لنواصل عمل أسلافنا.. نبنى ونشيد كما بنوا وشيدوا.. وندرس ونتعلم كما درسوا وتعلموا.. ونحدّث ونطور كما حدّثوا فى زمانهم وطوروا.. وسنلجأ فى ذلك كله إلى العقل، نعترف بدوره وقدراته، نحترمه ونقدره، نستغله ونستعمله، فهو المنحة الإلهية التى كرمنا الله بها، ومنذ غاب عن المسلمين دور العقل ونحن نتخبط فى تيه الأوهام والقشور والشكليات وضيق الأفق فى تفكيرنا الدينى ونعيش تخلفنا المادى نحيطه بالتبريرات والمفاهيم المبنية على أساسه وفى ظلاله دون أن نستفيد من دروس الازدهار الحضارى والتراجع الحضارى أيضا، فى زماننا نحن الحاضر والمستقبل. بل نكتفى بالتشدق بالزمن الماضى وإنجازاته وماحوت أجياله من عبقريات، وفرضت علينا مؤثرات التخلف مفاهيم فى الدين تبعد كثيرا عن مفاهيم الإسلام الصحيح السمح التى تدعو إلى الأخوة العامة والمحبة والسلام والتعاون وتقديم النصيحة بالحكمة والموعظة الحسنة وهى ترتكز على العقل «العلم» والإيمان «الأخلاق والسلوكيات الأخلاقية».

إننا نحتاج اليوم إلى دعائم العقل والروح معا فى عملنا وسعينا نحو التقدم، والنهضة المستنيرة التى يبنيها الإنسان ومن ثم احتياجنا إلى بناء هذا الإنسان كما يبنيه الإسلام بتعاليمه المستنيرة المتوازنة فى ظل مجتمع يتعاون كل أفراده - رجالا ونساءً - على إقامة بنيان حديث للدولة العصرية تسير بعقولنا وأرواحنا (أى بالعلم والإيمان والأخلاق) فى خطوات إقامتها وهو الأمر الذى من اليسير تحقيقه - من وجهة نظرى - طالما توافر الهيكل والنظام الواعى القادر على إدراك مشاكل التطبيق وحلولها.

إن التحدى الذى تواجهه الدول المسلمة اليوم هو تحدى «عقلى» لأن القوة المادية والتقدم المادى يقوم بالكلية على النشاط العقلى للإنسان الحر، كما أن مواجهة المشاكل والآثار والسلبيات الناجمة عن التخلف أو النمو يحتاج إلى الاجتهاد العقلى المستند إلى المعرفة والعلوم الحديثة، ونحن نعتقد أننا يجب علينا أن نتقدم إلى مستوى التوجهات المبدأية للإسلام التى قعدنا عن الارتقاء إلى مستواها النظرى

وتأخرت بسبب ذلك سلوكياتنا الواقعية حتى ساءت نظرة الآخرين إلينا من خلال هذا التأخر السلوكى. لقد أصبح من ضرورات العمل الدينى، الالتزام بمبادئ هى دعائم العمل من أجل التقدم وعبور كافة مشاكل التخلف والتأخر الكثيرة.. هذه المبادئ تقوم على التوحيد، توحيد الكلمة وتجاوز سلبيات الطائفية والمذهبية، والتفرق مع مايصاحبها من تعصب ضار أو تطرف مضر مبنيان كلاهما على ضيق أفق الفكر وقلة الثقافة والتزمت والتقليد الحرفى دون مراعاة لظروف متغيرات الواقع المتأثر بدوره بمتغيرات الزمان والمكان والظروف الوطنية والإقليمية والعالمية المحيطة، كما تقوم هذه المبادئ على البناء، بناء اقتصاد وطنى قوى يرفع دخول المواطنين ويحسن مستواهم المعيشى ويجنبهم كافة أشكال السلوكيات المنحرفة المترتبة أساسا على تدنى المستويين الاقتصادى والمعيشى، ومع هذا التدنى تكون أولوية العمل الدينى هى العناية بالإنسان الفرد والأسرة التى هى اللبنة الأساسية للمجتمع.

إن مشكلات التخلف والتأخر كثيرة ومعروفة وخطيرة ومنها على سبيل المثال الأمية والفقر وانعدام أو قلة الثقافة وسوء الأحوال المعيشية والصحية والبطالة وتدنى مستوى الأخلاق والسلوك الأخلاقى ربما نتيجة مشكلات المعيشة وعدم توافر المرافق والخدمات الضرورية وتدهور مستوى التربية الأسرية، وعدم النظام، وعدم إتقان العمل وعدم احترام العقل أو استخدامه الاستخدام الأمثل، وفقدان روح الانتماء الوطنى والتكافل الاجتماعى والتعاون من أجل صالح المجموع ومعرفة الحقوق والواجبات الإنسانية، مع الاهتمام بالشكليات والقشور والتافه من أمور الدين نتيجة ضيق أفق الفكر بصفة عامة والدينى بصفة خاصة، وقصور الخطاب الدينى.

إن الرقى والتقدم إلى مستوى مبادئ وتعاليم وتوجيهات وقيم ومثل وأخلاقيات القرآن العظيم والنبى محمد السراج المنير بنور الكتاب، والإنسان الذى استوعب هذه الوثيقة الإلهية المصدر هو ضمان ارتباط التقدم المادى (الدنيوى) بالأخلاق، والقوة بالتوجيه القيمى للدين من أجل تحقيق الذات.